الباب الثالث

وصف الطبيعة في القرآن الكريم

الفصل الأول: وصف الأرض وما علاها

الفصل الثاني: السماء في القرآن

الفصل الثالث: الأنواء في القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبيعة في القرآن الكريم لقيت عناية خاصة؛ لأنها مظهر من مظاهر الدلالة على الخالق الأعظم، وكان الوصف الفني وسيلة ناجحة في تشخيص هذه الطبيعة، وعرضها نابضة بالحركة والحياة، فالوصف الفني يطّرد في أكثر آيات القرآن الكريم لأن قليلاً من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً؛ لغرض فني يقتضي الصمت والسكون، أما أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة، يرتفع بها نبض الحياة، وتعلو بها حرارتها، وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القصص والحوادث، ولا على مشاهد القيامة ولا على صور النعيم، أو صور البرهنة والجدل، بل إنها لتلاحظ في موضوعات أخرى، في غير ما يتوقع المرء. . . وإن الحركة التي تشع من الآيات القرآنية المصوّرة هي مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان وهذا ما سماه النقاد ـ ومنهم سيد قطب ـ بـ «التخييل الحسّي» الذي يظهر في خلع الحياة على المواد الجوامد، والظواهرالطبيعية المألوفة.

تظهر الصورة الفنية جلية واضحة واسعة حين تصف الآيات القرآنية الكريمة، القبة السماوية، وتعرضها عرضاً حياً، فهاهي ذي السماء تسبّح بحمد ربها إجلالاً، وتنفطر إشفاقاً، وفيها نجوم متلألئة مضيئة، كأنها مصابيح تزينها، وتتوسطها الشمس، يتلوها القمر، فيزيدانها بهاءً ويكسبانها ضياء.

ولتكتمل صورة الطبيعة في القرآن يصف البيان القرآني ما بين الأرض والسماء من غيوم كأنها جبال محمولة على متن الرياح تبسطها في السماء تارة، وتنقلها إلى بلاد أخرى تارة ثانية؛ كل ذلك بأسلوب حيّ نشيط.

ثم تبرز آيات القرآن الوصفية في تجسيم الليل والنهار، وهما يتعاقبان ويلفّان الحياة وينقلان الوجود من ظلمة إلى نور، ومن نور إلى ظلام، ويخلعان

عليه بهجة في الصبح وهو يتنفس، كما يخلعان عليه قدسية وسكوناً إذا ما الليل عسعس، حتى إذا انتهى الغروب غاب الشفق وزال عن الأفق الشحوب.

ولا ينسى الوصف القرآني الأرض التي تتمم لوحة الوجود، فيجسدها ويشخّص مظاهرها؛ فالأرض تحيا وتموت وتبرز على سطحها حيوات النباتات، فالجنان المعروشة ذات القنوان الدانية في فصل، والاخضرار الذي يُلبس الأرض ثوباً أخضر في فصل آخر بعض مظاهر الحياة.

ويصف القرآن الكريم النباتات وقد شقّت الأرض بقوة الحياة تمزق جدران أغلفة بذورها، فتخرج خضرة بهجة، وتنفلق انفلاق الإصباح، وتتطاول الأشجار، فَتَبْسُقُ وينضِدُ طلعها، وتمتد ظلالها وارفة فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العَصْفِ والريحان.

والعناصر الجامدة على سطح الأرض لقيت في وصف القرآن وتصوير بيانه الفني الحي عنايةً كذلك؛ فالجبال راسية في الأرض كالأوتاد، منها الأبيض والأحمر والأسود، هذه الألوان التي تجعل الوصف القرآني أكثر التصاقاً بالواقع بل يحكيه.

وليست الجبال والنبات عناصر الأرض وحدها، فالبحار عنصر هام لم تغفله آيات القرآن بل عرضت له صوراً عديدة، وأوصافاً متعددة، تشكل في مجموعها صورة ذلك البحر الهادىء الوقور حيناً والصخّاب الذي يبتلع ما علا سطحَهُ حين يثور حيناً آخر.

كما أن الوصف القرآني مدّ آفاق وصف الطبيعة في صورة عريضة، وما اكتفى بأن وصف الأعالي والأسافل وما بينهما، بل ألحّ على إدخال عناصر حيّة حياة حقيقية كالطير وهن صافات في جو السماء يسبحن، وكذلك الإنسان الذي يضرب أكباد الأرض ويجوب الآفاق.

ووصف القرآن الكريم الفلك التي تشكل مظهراً من مظاهر نشاط الإنسان؛ فالجواري في البحر كالأعلام: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] وهي تَمْخُرُ عُباب اليم تدفع ركابها أحلام عراض: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ

﴿ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

على هذا النحو يتجلى وصف القرآن الكريم للطبيعة سواء في قبتها السماوية وما فيها، أو عالمها الأرضي وما يعلوه من أحياء وما بين هذا وذلك.

obeikandl.com

الفصل الأول

١ـ الأرض وما علاها

وصف القرآن الكريم الأرض وصفاً حياً يرتقي إلى حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، فإذا الأرض تشارك الآدميين الذين عليها، تأخذ منهم وتعطيهم، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عينهم عليه، فيأنسون بهذا الوجود مرة[١]، ويرهبونه مرة ثانية.

ويعتمد الوصف القرآني على أساليب البيان من تشبيه موح، واستعارة مشخصة، وكناية معبرة، مستفيداً من قدرة هذه الأساليب الوصفية على الإيحاء والتعبير حتى إن الإمام الجُرْجاني قال في حديثه عن أساليب البيان: «لكأن جُلّ محاسن الكلام ـ إن لم نقل كلها ـ متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطار تدور عليها المعاني في تصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها[٢]» فالاستعارة «تعليق العبارة على غير ما وُضِعَتْ له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة[٣]».

وكذلك التشبيه الذي عرّفه علماء البلاغة بأنه «العقد على أن أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل» هذه العناصر الفنية استخدمها القرآن استخداماً هادفاً، فهو ليس كتاب فن بل الفن وسيلة إلى عرض حقائقه مصوّرةً حيّة، فوصف الأرض في القرآن يبدأ بعرض سعتها، فقد مُدّت مدّاً واسعاً ثم

(١) التصوير الفني، سيد قطب ص٦٤.
(٢) أسرار البلاغة للجرجاني ص٧٩.
(٣) النكت في إعجاز القرآن، للرماني.

ألقيت فيها رواسي، وزيّنتها نباتات خضراء موزونة بهيجة، تسر العين وتخلب اللب. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ثم يتابع بيان القرآن بوصفه الفني في مدّ آفاق هذه الصورة وأبعادها وجزئياتها بعد أن وضع إطارها العام الوسيع، فالأرض مهّدت كناية عن صلاحيتها للإنسان، وفيها سبل للمعاش وعلامات للاهتداء. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وفي سورة أخرى يشير القرآن في مشهد سريع إلى تمهيد الأرض حيث إنها فرشت بما يلزم فرشاً محموداً ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

ويتكرر المعنى في سورة البقرة، حيث تصبح الأرض في بيان السماء فراشاً وثيراً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وتزداد الصورة غنى حيث تبرز الأنهار الرقراقة المياه، وهي تخترق الأرَضين تسكب فيها الحياة حيثما استقرت ومرّت، كما أن الجبال الراسية تظهر في وصف الأرض ليكون الوصف واقعياً، حتى البحور المسجورة كل أولئك يجعل الوصف القرآني للأرض غنياً، فتملاها العقول وهي تلاحظ ذلك في واقع الحياة. . قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وفي سورة المرسلات تظهر الأرض وقد ضمّت عناصر عدة، وجمعت على سطحها المتناقضات، من أحياء مستوين، أو أحوات مندثرين[1]، وفي هذه الأرض جبال شامخات، وماء ينزل من السماء فراتاً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

---

(١) أساس البلاغة، للزمخشري ص٥٤٦.

على هذا النحو يصف الفن القرآني الأرض الذلول المطواع للإنسان ويكسبها التشخيص الحيّ، والتخييل الحسي المتحرك حيوية، فالأرض ذليلة خاشعة ذات مناكب هادئة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويرافق الوصف الأرض في دورتها السنوية، فيشخص تلك الحركة الهادئة المستترة التي تعيشها الأرض بعد نزول الأمطار، فقد كانت هادئة هامدة خاشعة، حتى إذا ما نزل عليها الماء تغيرت حالتها «فتهتز وتحيا بهذه الأوصاف الحيّة وتستحيل الأرض الجامدة كائناً حياً بلمسة واحدة، في لفظة واحدة»[1].

إنها كلمة «اهتزت وربت» وليس سرّ جمال هذه الصورة في صورة بيانية أظهرت استعارة مكنية، بل في تشخيص حيّ جعلها تنبض بالحياة، يتخيلها الإنسان، وتبتهج بها النفس ابتهاج أزواج الأرض كلها. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وفي سورة ثانية نلحظ مشهداً آخر للأرض يقوم على أساس من الاستعارة التي تبرز الصورة في الذهن. قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وتتسع الصورة التي يصف فيها بيان القرآن الأرض حين يربط بين حركتها واهتزازها وبين ما يتسبب عنها فتظهر الجنات خضرة نضرة متعددة.

ويرى سيد قطب أن القرآن حين وصف الأرض قبل نزول المطر وقبل تفتحها بالنبات، مرة بأنها «هامدة» ومرة بأنها «خاشعة» ليس ذلك مجرد تنويع في التعبير بل في التصوير، فالهمود جاء في جوّ بعث وإحياء وإخراج مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامدة» ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، أما «الخشوع» جاء في جوّ عبادة وخشوع وسجود يتسق معه تصوير الأرض بأنها

(١) التصوير الفني، سيد قطب ص٦٤.

خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربَتْ، وفي كل من الموضعين حركة للأرض بعد خشوعها[1]، كل ذلك في تناسق دقيق يؤكد أن الوصف الفني في القرآن إنما لإغناء الصورة وإبراز الغاية بها لا غَرضٌ فني بحت يتصيده في كل مجال.

ومن مثل هذا الوصف ما ورد في سورة يس من أن الأرض ميتة لا حياة فيها، ثم هطلت عليها الأمطار فأحيت الأرض، وكانت بعد ذلك خضرة نضرة، فيها فواكه وأثمار، وتتلوى على أديمها المياه من العيون المتفجرة بعد نزول الأمطار. فها هي ذي الأرض حيّة عامرة بالحياة.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣ـ٣٤].

على هذا النحو نحا القرآن في الوصف، كما أنه يتخذ الإطار العام للصورة ثم يشير إلى جزئيات الصورة فيظهرها، ليستطيع القارىء أن يتملى الصورة ويستحضرها، ويدرك عناصرها بصورة كليّة، فالأرض بساط، أو مبسوطة[2] يتقلب عليها المرء كما يتقلب الرجل على بساطه، وتلمس ريشة الفن القرآني الأرض لمسة فإذا هي متسعة اتساع ما يتخيل الإنسان. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩ـ٢٠].

---

(١) التصوير الفني، لسيد قطب ص٩٩ وما بعدها.
(٢) أساس البلاغة للزمخشري ص ٧ـ ٣٥.

٢ـ النبات

إن وصف القرآن للأرض لم يكن وصفاً لمادة جامدة، يخرج من جوفها نباتٌ حيّ، بل تعدى الوصف الأرض إلى ما علاها من نباتات متعددة، وأشجار مختلفة في الطعوم والأثمار، ويبدأ الوصف في سورة الأنعام حيث تصف هذه السورة النبات وصفاً عاماً يحدد حكايته منذ سير السحاب المحمل بالماء، الذي يكون رسول الحياة إلى الأرض، فلا تلبث أن تُخرِجَ النباتات ذات الحبوب المتراكمة أو النخل ذا الأعذاق دانية المجتنى[1] لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها، كما أخرج هذا الماء الزيتون والرمان الذي يشبه بعضه بعضاً، ويصل الوصف القرآني إلى الذروة حين يستحضر الصورة حيةً شاخصة ناطقة حيث يتحول الضمير من المتكلم في أخرجنا إلى المخاطب ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، كل ذلك ليكون الوصف القرآني وسيلة تعين السامع على تخيل الصورة وتمثل المعنى. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وتعرض سورة عبس حكاية النبات عرضاً متسلسلاً منذ هطول الأمطار إلى آخر مراحل النبات والمآل الذي يصير إليه وبين هذه وتلك مراحل عديدة. قال تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٥ـ٣٢].

وفي سورة الزمر يكون وصف النبات أشمل فقد أغناه بيان القرآن بالعنصر اللوني الذي يصبغ الصورة الفنية بصباغ الواقع الذي يعيشه الإنسان، يبدأ المشهد بلفت الإنسان إلى رؤية الماء وهو ينزل من السماء بقدر، ثم يغور في

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ٦٤ وفي كلمة «دانية» اكتفاء أي وغير دانية لطولها كقوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾.

أحشاء الأرض ليخرج متدفقاً غزيراً فيكون نهراً، أو يخرج هادئاً فيشكل نبعاً، وفي كلتا الحالتين فيه حياة الزرع المتعدد الألوان من خضرة وحمرة وصفرة وبياض[1]، ثم ينمو ويجفّ وينقلب إلى اللون الأصفر بعد نضارة وبهاء وهو يسير في طريقه إلى الفناء.

هذا مشهد متكامل تبدأ فيه لوحة الوصف القرآني من لدن نزول المطر ثم خروج الزرع إلى الأثمار، كل ذلك بلمسات فنية فيها اللون والإيحاء. وحيث يسخر القرآن الكلمة العربية القادرة على التصوير والتي تدل بمعناها بدقة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] [الزمر: ٢١].

إنه مشهد من مشاهد الأرض، متعدد الخطوات وهو يعرض في بطء وتفصيل، وتترك كل خطوة للعين مدة كافية للتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر، هذا هو الماء ينزل من السماء، فيسلك ينابيع للري ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج هذا الزرع وينضج فتراه مصفراً، ثم ييبس فيصير حطاماً، وكلمة ثمَّ في كل مرة تعطي هذه «المهلة» للعين والنفس، لتملي المشهد المعروض قبل طيّه، وعرض مشهد تال[3].

وفي سورة الرعد يتسع الوصف القرآني حيث ترد جزئيات تغني الصورة فتظهر بقاع الأرض مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة، طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة[4]، وهناك فيها جنات مختلفات المحتوى من أعناب وزروع ونخيل ذي رأس واحد أو رأسين، فالماء واحد، وطعم كل مختلف.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ . . . ﴾ [الرعد: ٤].

(١) تفسير النسفي ٤/٣١٨.
(٢) السماء: السحاب.
(٣) التصوير الفني لسيد قطب ص٦٠.
(٤) تفسير النسفي ٤/٤٠١.

وتتكرر الصورة عينها في سورة الأنعام، فالجنات المعروشة والنخل والزرع المختلف أكلُه، والزيتون والرمان، كل ذلك مسخر لتعميق الغرض الديني: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويحظى النخيل دون غيره بوصف خاصّ لما له من أهمية في حياة العربي إبان البعثة: وصف القرآن الكريم بالارتفاع والبسوق والثمر العذق الوفير النضيد. وهو بهذا الوصف يلفت الإنسان إلى التأمل الهادف المجرد، ويثير كوامن تفكره ليتدبر هذه المظاهر الدالة على الخالق: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠].

وفي سورة الرحمن يشير القرآن الكريم إشارة سريعة هادفة إلى الفاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذي العصف والريحان، وهي زمر من أنواع نبات الأرض وصفها القرآن الكريم بأبرز صفاتها.

على هذا النسق يرد وصف الطبيعة في القرآن الكريم مستخدماً البيان لينقل المعنى على أجنحته الرشيقة، وفي سورة الأعلى يشير القرآن إشارة صريحة إلى احتواء المراعي كل شيء: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى: ٤-٥].

ولا يفوت بيان القرآن أن يصف تلك الظلال التي تطرحها الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها منقادة لله تعالى[1] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

لفتت سورة أخرى نظر الإنسان إلى جمال تلك الجنان، ذات الحدائق المبتهجة بما فيها من أشجار وارفة الظلال، تقطر الحياة من أوراقها، يكلم جمالها وتناسقها عن عظمة منبتها: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ

(١) تفسير النسفي ٣/٤٣.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

٣ـ البحر

القرآن ليس أدباً وإن كان في ذروته، وليس الهدف منه بلاغة وإن كان ذلك من أبسط بلاغته، بل هو كتاب لا يسمو إلى أسلوبه أديب، ولم تجاره أمم ولا شعوب، هو كما وُصف: آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب[1]، لقد تناول موضوعات شتى وفي كلّ أجاد: وصف البحر كما وصف غيره من مظاهر الطبيعة، وصفاً تُحِسُّ منه حركة الموج يصطخب، وتعلو ثبجه سفن ضخمة تجري مطمئنة يحسبها الرائي جبالاً وسط البحر ثابتة، ولكنها تسير متهادية في طريقها، تدفع الرياح شراعها، فإذا ما أراد إيقافها أسكن الريح فظلت السفن رواكد جُثّماً

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢ـ٣٣].

وفي سورة الرحمن ترد صورة الجواري مرّة أخرى مشبهة بالجبال، وهل تكون الجبال إلا ضخمة شامخة ؟ تُرى راسية على سطح الأرض، وإن صورة الفلك على صفحة الماء يظنها الرائي جبلاً علماً: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

كما أن سورة النحل تعرض مشهداً من واقع الحياة الإنسانية تعيشه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وهذا المشهد الذي ترسمه الآية يصور البحر مخلوقاً ضخماً مسخراً

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص٢٥.

تمكّن البشر من السير فيه، وذللوه لركوبهم والارتقاء عليه فيه مصدر من مصادر رزقهم وحليهم، فهم بين سابح وغوّاص، وتكتمل الصورة حين يصف القرآن تلك السفن الجاريات تمخر الماء وتشقه مع صوت ينبعث منه[1]، وتكون الصورة الفنية القرآنية موحية فالبحر ذليل مطواع، والإنسان على ظهره ينتفع، والسفن على ظهره تمزق ماءه، وتوشك أصوات الماء أن تنفذ إلى الأسماع[2].

وتتكرر صورة البحر مرة ثانية في سورة فاطر وتلجأ إلى طريقة بيانية أخرى حيث يوصف البحر بصفتين متباينتين، وينقسم البحر على وجه الأرض إلى بحرين: أحدهما عذب فرات سائغ شرابه، وثانيهما ملح أجاج وفيهما على حد سواء لحم طري يؤكل، وحلية تلبس، وعلى ظهرهما السفن تَمْخُرُ عُباب الماء كما تمخر الريح القوية السحاب، وهي تقل على ظهرها إنساناً يضرب في الأرض يبتغي الرزق والفضل.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وفي سورة الفرقان يشير أسلوب القرآن إلى البحر واختلافه أيضاً فهو من البحور المبثوثة في الأرض، ومنها العذب المستساغ والمالح المر، ولكنهما لا يطغيان على بعضهما وكأن بينهما حواجز مانعة[3]

﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

وتأتي صورة البحر في سورة الرحمن أخصر صورة، فالبحران ـ أي

(١) يقال مخر السابح: إذا شقّ الماء بصدره.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/٨٥ وما بعدها إلى ص٨٩.
(٣) تفسير القرطبي ١٣/٥٨.

بحرين ـ يلتقيان ولكن التقاءَهما ليس بضائرهما: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ـ٢٠].

وقد تكون للبحر حالة خاصة يخرج فيها عن طبيعته معجزةً لنبي كما حدث لموسى عليه السلام، حيثُ وصف لنا القرآن البحر رَهْوَاً، وغرق فيه أصحاب فرعون: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وفي الشعراء ينفلق البحر ويفترق، حيث يصبح كل فرق منه كالجبل المنطاد[1] ولا يخفى أن انفلاق البحر وتشبيهه بالطود العظيم تجسيد للحقيقة بأسلوب فني معبر: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وعلى العموم جاء وصف البحر واقعياً من نحو، متوخياً البساطة والبعد عن الشطط الفني والتكلف في حشد الصور من نحو ثان؛ لأن وصفه هادف ليظهر سيطرة الله على الفلك فيه وهيمنته على من فيها، وعلى الظواهر التي تحيط بها، وليبين الوصفُ ـ كذلك ـ مظاهر عظمة الله وفضله العميم.

٤ـ النهار

وصفت آيات القرآن الكريم الليل والنهار مجتمعين معاً مرَّة في آية واحدة ووصفت كلاً منهما على انفراد مرَّة ثانية، وفي الحالتين كلتيهما اتُّخِذَ الوصف الفني وسيلة لإظهار الحقيقة الكونية من نحو، وإثارة الخيال الإنساني من نحو آخر.

تدرج الوصف القرآني للنهار تدرجاً سببياً منذ مراحل الصباح الأولى حتى انتهاء النهار، وغياب الشمس، متوخياً الدقة في عرض الصورة الموحية بالحقيقة الثابتة، ففي سورة التكوير يتكىء الوصف على الاستعارة التي توحي

(١) تفسير النسفي ٥/ ٤٠٥.

بالمعنى المستكن وراءها عن طريق ما تتركه في الخيال من إثارة. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

وتنفس هنا مستعار، وحقيقته بدءُ انتشاره، وتنفس أبلغ منه، وقد رأى أبو الحسن الرماني: أن التنفس أبلغ من الانتشار لما فيه من الترويح عن النفس[١]. وأكاد أجزم بأن الصورة الفنية في تنفس الصبح تضمن إيحاء آخر يكمن في تلك الحياة والنشاط والدأب الذي يبدأ مع بداية النهار، فالنفس مظهر الحياة الأول، ودليل استمرارها، ففي الليل هدوء وسكون، وفي الصبح انبعاث وانطلاق في الحياة، وهذا ما أوحى لسيد قطب أن يقول في حديثه عن آية: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: «يخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثنايا الصبح وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء»[٢].

في سورة المدثر وصف فني لحركتين متناقضتين متتاليتين تتالياً سببياً وزمنياً: فالليل يدبر، والصبح يسفر، وفي الإدبار إظلام، وفي الإسفار تنوير وإضاءة[٣]، ولا يخفى أن هاتين الحركتين اكتسبتا حيوية الوصف من استخدام الاستعارة المكنية في أدبر وأسفر ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤].

وفي سورة الليل أشار بيان القرآن الكريم إلى النهار إشارة سريعة، فيوصف بالانجلاء والظهور، وذلك كزوال ظلمة الليل، وظهور الضياء، وفي ذلك الظرف من الزمان، انظر إلى النهار فيبدو جماله وجلاله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]

كذلك في سورة النبأ يرد النهار، ويشير سياق وروده إلى الآثار التي تكون

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله ـ محمدزغلول ص٨٣، وإذا كان الشعراء في قصائدهم يرون في الليل ثقلاً، وفي النهار انجلاء هم وزوال غم، فإن صورة القرآن لليل هادفة نحو معنى الحياة التي تبدأ مع بدء الصبح.
(٢) التصوير الفني لسيد قطب ص٦٤.
(٣) تفسير النسفي: ٥/ ٢٩١.

فيه، فهو معاش للورى، حيث يتقلب الناس في حوائجهم ومكاسبهم: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

على هذا النحو تظهر صورة النهار في القرآن الكريم محددة الإطار، واضحة الأجزاء، على الرغم من أن الآيات التي كونت مادة وصفها قليلة متباعدة، لكنها غنية معبرة، ولا يغيبن عن البال أن القرآن الكريم ليس معرضاً للصور الفنية التي تغذي الخيال وحده، بل ينهج أسلوباً وصفياً خاصاً يضمن الفكرة الرائعة في صور محببة.

٥ـ الليل

بات من المعروف لمن يتأمل أسلوب القرآن الكريم الوصفي أن القرآن ليس معرضاً للصور الفنية التي تغذي الخيال وحده، بل إن القرآن ينهج أسلوباً وصفياً يضمن الفكرة الرائعة في صورة محببة.

فالليل مظهر من مظاهر الوجود الكبرى يشطر حياة الإنسان، وفيه نصف أحداثها، وله أهميته في الحياة الإنسانية وغيرها، لذا وصف القرآن الكريم في بعض سوره الليل وصفاً شمل مراحل عمره المتجدد، ففي سورة الانشقاق أشار القرآن إلى أهمية الليل في أسلوب قسمي: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ـ١٧].

في سورة الليل يرد ذكر الليل المغشي حيث يواري كلّ شيء بظلامه[١] الذي انداح على صفحة النهار المتلألئة، وراح يغشاها شيئاً فشيئاً، حتى بدا هذا الوجود مخفياً، فهدأت حركة الأحياء، وجللت السكينة الأشياء، وأضحى الإنسان مجبراً على أن يخلد للراحة، لا يقوى على شيء في ظلام الليل حيث الأخطار والأضرار «فقد غطّى الليل الأرض والخلائق وهو يغشى كل شيء بظلمته»[٢].

---

(١) تفسير النسفي ٥/ ٣٧١، الغشية: الغطاء، والغشاء هو الذي يغلّف القلب.
(٢) تفسير القرطبي ٥/ ٨٠.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل: ١].

كما أن القرآن الكريم أشار في سورة الضحى إلى الليل فوصفه وصفاً واقعياً يلفت نظر الإنسان إلى سجو اليل وهدوئه، وإن كان المراد سكون الناس والأصوات فيه: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ٢]

ولعل هذه الظلال الندية التي تخلعها آية ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ تناسب إطار الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة، والرضا الشامل، والشجى الخفيف، وكونت إطاراً من الضحى الرائق ومن الليل الساجي يناسب خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام بعد تأخر الوحي.

وكانت كلمة سجا[1] أنسب ما يكون فالليل إذا سجا ليس هو بالليل على إطلاقه بوحشته وظلامه، لكنه الليل الساجي الذي يرق ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف[2].

ويرد في سورة الفجر وصف لليل وقد سرى يغطي الوجود بظلامه الهادىء، فهو سار دائم، وإنك لتحس لسريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد[3].

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر: ٢].

في حين أوردت سورة النبأ وصفاً آخر لليل فهو كاللباس للإنسان، يستره عن العيون[4] بظلامه الذي يصل إلى كل مكان. فهذا الوصف الذي يسلكه القرآن الكريم بوساطة المجاز يجسد الحقائق الكونية، ويحرّك خيال الإنسان

(١) سجا الليل: سكن. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. وقال الشاعر:
يا حذا القمر والليل ساجْ وطَرْفٌ مثلُ مَلاءِ النّساجْ
قرطبي ٢٠/ ٩١.
(٢) انظر ما أورده سيد قطب في «التصوير الفني» ص١٠٥.
(٣) التصوير الفني ص٦٤.
(٤) تفسير النسفي ٥/ ٣١٣.

ليقف على جزئيات هذا الوجود الذي يعيش فيه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

أما في سورة يس فيوصف الليل وصفاً أوفى، إذ أشار القرآن إلى أن الأصل ما بين السماء والأرض الظلام ثم كان النور حاصلاً طارئاً، فإذا انسلخ النهار عاد الوجود مظلماً...

على هذا النحو جاءت الصورة مركبة، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

وكانت الصورة البيانية في سلخ النهار من الليل معبرة موحية بالمعنى الذي يرمي إليه القرآن. والذي يكمن في نزع الضوء من الليل نزع القميص الأبيض عن الإنسان ذي البشرة السوداء.

٦ـ الليل والنهار

سبق أن عرضنا الليل والنهار في وصف القرآن لهما منفصلين ولكن ثمة وصف آخر لهما، حيث يرد الحديث عنهما مجتمعين في آية واحدة، ويبدو أن هذا العرض يهدف إلى تعميق وصفهما.

واعتمد القرآن الكريم طريقة الوصف التخيلي، وذلك بجعل القارىء على تخيل ما وصف به كلٌّ من الليل والنهار.

أول ما نلحظه في وصف القرآن لليل والنهار هو سباقهما الطويل الذي لا ينتهي عند غاية، فهما أبداً يتعاقبان متلاحقين إلى يوم الدين، فالليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركاً، ويدور الخيال مع دورة الليل هذه الدائبة التي لا نهاية لها بعد، ولا ابتداء لها قبل[1]. قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) انظر تحليل هذه الصورة في «التصوير الفني» لسيد قطب ص٦٤.

ولا يخفى أن وراء هذه الطريقة البيانية التي يستخدمها أسلوب القرآن غاية يسعى إليها وهي قوة اللفت إلى حقائق الكون[1] ومظاهر السيطرة عليه من قبل الله سبحانه، والقرآن الكريم عينه يوحي بهذا الهدف حيث يقول في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وثمة ظاهرة يلحظها المرء في وصف القرآن لليل والنهار، وهي إيراد أوصاف تناسب كلاً منهما تباعاً في آية واحدة؛ لتكون صورتهما واضحة أشد الوضوح لأنه بهذا التقابل تتميز الأشياء. في سورة التكوير يُتْبَعُ الليل بالعسعسة ويتبع الصبح بالتنفس والحركة، في الأول إيحاء بالظلمة والسكون، وفي الثاني إشعار بالحركة والانطلاق. قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧ـ١٨].

وثمة ظاهرة ثالثة في وصف الليل والنهار وهي إيراد أوصاف لما يجري فيهما، فالليل ليس مجرد ظلام يلفّ الأرض ويطرد النور بل هو سكون وهدوء، والنهار ليس ضياء بل حركة وانطلاق، وبيّن أن هذه الظاهرة الطبيعية هادفة تؤكد السيطرة على الكون وتسخيره للإنسان.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

مثل هذا يرد في سورة النمل مع اختلاف في الضمير الذي ينقل من الغيبة إلى الخطاب لاستحضار الصورة في الذهن: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

وفي السورة عينها ـ سورة النمل ـ يُظهر القرآن الكريم أن هذه الظاهرة ظاهرة الليل والنهار إنما هي لخدمة الإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النمل: ١٢].

---

(١) في «التفسير البياني» للدكتورة بنت الشاطىء ص٢٥ إشارة لمثل هذا.

وتتضح صور تعاقب الليل والنهار في سورة الزمر: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. فهاهما يتعاقبان يسعى كل واحد منهما أن «يغيّب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لفت عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، أو أن يكرّ على هذا كروراً متتبعاً»[1]

هذه الحادثة اللطيفة المتكررة المألوفة والتي هي ملء بصر الإنسان، كل يوم توشك أن تكون جزءاً من كيانه فلا يلتفت إليها لإلفه إياها؛ لذا جاء أسلوب القرآن يصف هذه الحادثة الظاهرية وصفاً بيانياً حسيّاً مشخصّاً: فالليل عاقل يلفّ النهار، والنهار يدرك ذلك فيغالب الليل، وكلاهما في حذر، وكلاهما في حركة دائبة لا تفتر، وهدفين يسعيان إليهما دونما ظفر.

وفي سورة الإسراء وقف الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عند هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] وقف وقفة متأنية يتأمل الآية الكريمة ويعيش بخياله الصورة التي رسمتها، وبين المعنى الذي ترمي إليه هذه الآية الكريمة فقال: «أخبر الله تعالى أنه جعل من الليل مظلماً لتهدأ فيه الرّجل ويستريح الإنسان، وجعل النهار مضيئاً ليتهيأ له في السعي والعمل، ولكنه لم يعبر عن هذا المعنى بهذه الطريقة وإنما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الاسراء: ١٢]. وإذا قرأت هذه الآية أسرع خيالك فتصور حيوانين أو شبحين عظيمين أحدهما يظل مطبقاً عينيه لا يفتحهما على نور، والآخر يظل فاتحاً عينيه لا يطبقها على ظلام، فأما الأول فيتجسد فيه ظلام الليل وإطواءه وهدوءه، والآخر يتجسّد فيه ضياء النهار وحركته والتماعه، وهكذا يخرج القرآن المعاني بمظهر حسي ملموس لتكون أوقع في النفس وأدلّ على المقصود»[2].

(١) تفسير النسفي ٤/٢١١.
(٢) أحسن الحديث للدكتور البوطي ص١٥١.

وفي سورة الأنعام يجسّد القرآن الليل تجسيداً حسيّاً، ويشخصه ظاهراً للعيان، فهذا الليل الذي لا نلمسه مادة في الواقع هو في بيان القرآن مادة تغلفها الإرادة الإلهية، وينبعث عنها الضياء والنور ويغمر الكون؛ ولتكون الصورة حيّة خالدة جاءت صيغتها اسم فاعل يدل على التجدد والحدوث، فالله يَفْلُقُ صباح كل يوم[1]، ومن قبل كان الليل سكناً يهدأ فيه الناس بعد طول عناء، ولما كان الليل يسير على نظام مطّرد تبدأ الظلمة تدريجياً ثم تُواري كل شيء ويهدأ الكون، واستخدم بيان القرآن فعل «جعل» الذي يدلّ على ثبوت الحقائق، وكأن المستقبل والحاضر واقعٌ ماض.

أما الصباح فهو في كل يوم خلق جديد، لا يكرر صباحاً آخر بالضبط، لذلك استخدم بيان القرآن الكريم «خالق».

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٤٥ ـ ٤٦.

obeikandl.com